2012 0601-0001 a-2

السفير جريدة السفير 2012© www.assafir.com

هذا الأسبوع
تاريخ العدد ٢٠١٢/٠٦/٠١ **العدد** ١٢١٩٦

أحلام لبنان المؤجلة

سحر مندور

غموض الماضي، وتأجيل المستقبل، ضمن إطارٍ من التعبير الحرّ، والمتفلّت من المعلومات والتبعات: قاعدة تقوم عليها الحياة العامة في لبنان.

عتَق الماضي عفوٌ عام، فبات كأنه لم يكن. وجوهه بيننا، تحكمنا وتجاورنا، كأنها جديدة، كأنها بلا ماضٍ. لكنها تستدعيه كلما حلا لها ذلك، "نضالنا" و"مشروعنا" و"شهداؤنا" و"خطّنا الوطني". أما النصف الفارغ من الكوب، حيث لا كلام وإنما أفعال، حيث الفظاعة، والأخبار المتوارثة عن الأجساد المذوّبة بالأسيد، والآذان المحاكة حزاماً، و... فلا ضرورة للخوض فيها، مع إنها أيضاً "نضالنا".

ماضي بطولات بلا ضحايا، يلفّه الغموض. يُنفى كل من يسعى لخرق كوةٍ فيه، كأهالي المخفيين قسراً. تراهم منفيين إلى هامشٍ من الأسى والتعاطف والاستحالة، لتفادي تبديد بعض الغموض، لتفادي استدعاء الضحايا.

وعندما يأتي الماضي ليلتقي بالحاضر، لا يجده. الحاضر مشغول بتأجيل نفسه إلى مستقبلٍ يُدفع دوماً إلى الأمام.

أحلام لبنان مؤجلة دائماً، فالأيام السريعة المتأرجحة بين حربٍ وسلمٍ، لا تتيح الاستقرار لا على حال ولا على فكرة، والذهاب بهما إلى أبعد.

الأيام تكافح الإستقرار. والدولة، لا تغيب ولا تحضر، تستمدّ من ماضيها الحربي غموضها، وترمي إلى عالم النيات فاعليتها، بحيث يتأجل كل حاضرٍ إلى مستقبلٍ سيكون أكثر ملاءمة للنمو والفعل. يتأجل، كأزمة الكهرباء، كأزمة الهوية، ولن يجد لنفسه حلّاً.

فالمؤقت هو حيّز الدولة.

الأمن.. سبب الدولة

في الاقتصاد، توزّع "رجال الدولة" المداخل إلى الدولة، بحيث يرتبط المواطن بهم، كل حسب طائفته، وقد حصل الارتباط حتى بات انصهاراً وولاء. أما في الأمن فتشدّ الدولة دوماً إلى اعتبار كل أزمة استثناءً، وكل حادث فردياً، بحيث تنتفي إمكانية بناء سياق للخروقات الأمنية الكثيرة. فالدولة موجودة، لأنها الاتفاق الوحيد الذي نجح في وقف حربٍ أهلية. لن تعلن يوماً فض الاتفاق، لأن وجودها يقوم عليه. لن يكلّ صوتها يوماً عن نبذ "الفتنة"، مهما احتد عند مطالبته بمضاعفة حجم الحصة أو الدور.

وهي، كلما اصطدمت بجدارٍ أمني، تجدها تمارس الأداء الذي تتقنه: الغموض والتأجيل. الغموض في عرض المشكلة القائمة راهناً، والتأجيل في تأمين الحلول الجذرية لها.

أسبوعٌ انهار أمن لبنان خلاله، وقد عبر الحياة وكأنه ماضٍ، لا أثر له في الحاضر. شقة الحمراء وتطوّرها من "حادث فردي" إلى ارتباط بتنظيم "القاعدة" فانعدام الارتباط، مثال عن ذلك. وبقيت كمية السلاح التي وجدت في شقّة الحدث، صورة لم تجد لها تبريراً حتى الساعة، بعد انتفاء فرضية "القاعدة". وفي عكار، ارتفع منسوب العنف، وارتفع معه تحليل أسبابه لجهة الفقر والإهمال. فتم التوافق بشكل غامض على خفض منسوب العنف، وإعادة تأجيل الفقر إلى المستقبل. الشخص الذي ألقي القبض عليه بتهمة، وخرج بسيارة وزير، ليستقبله رئيس الوزراء في دارته، يبقى غامضاً. طريق الجديدة وقرارها بطرد "السفير السوري" في معركة استمرت ليلة كاملة، أيضاً. قصص تلاقت وتفرّقت، صنعت أسبوعاً غامضاً ونامت بعده، لم يتوجد حلّ جذري لأي منها يضمن عدم تجدّدها. فلننتظر المستقبل، ونر..

لولا المخطوفون..

تبقى من ذاك الأسبوع قضية المخطوفين في سوريا معلّقة، تكسر السياق المستحب فرضه للقصص الأمنية. كأنها بذلك تنسج ترابطاً رمزياً مع قضية المخفيين قسراً في الحرب الأهلية. ١٧ ألف مخفيّ يذكّرون بخمسة عشر عاماً يُراد إغراقها في الغموض، و١٢ مخطوفاً يذكّرون بأسبوع انهار الأمن خلاله، لكنه طوي بسرعة كأنه لم يكن ولن يكون.. لولاهم.

فقد بدا في بحثنا عن المخطوفين وكأن المعرفة ارتحلت تماماً عن لبنان، وغرقنا في الظلام الدامس، نتلمّس درباً ولا نجده، نصطدم حيناً بطائرة سعد الحريري، وحيناً بشاشة حسن نصر الله، واحد يؤكد والآخر يؤكد، لنعرف بعد قليل أن لا شيء مؤكداً.

والحاجة ملحّة للخروج من الظلام، لأن اعتياد العيون له يذكّر بيوميات الحرب الأهلية.. وهي يوميات غير مستحب تذكّرها، لأننا نحيا في كنف "دولة" لا سبب لوجودها إلا كونها الاتفاق الأخير الذي أنهى الحرب الأهلية.

سعت "الدولة" إلى تفادي التأجيل هنا تحديداً، والناس ينتظرون.

سعت وفشلت، والناس ينتظرون.

ولولا الخشية من إمكانية فوضى أمنية تختبئ خلف قضية المخطوفين، لما طال انتظار الناس. لولا الخوف من الغد، لكان الناس قد نسوا إلحاحهم، إذ عوّدوا بالغموض والتأجيل على نسيان الإلحاح، حتى اعتادوه.

أدوات "البقاء"

الناس يعتمدون "التحليل" لقلّة توفّر المعلومات، علماً أن التحليل لا يستقيم إلا عند توفّر المعلومات. فينمو التحليل، ويتشابك مع المؤمنين به، ليضحي هو الحقيقة، هو المعلومة، وهو سياق القصة. الناس يختبئون في التحليل كملجأ، كي لا يواجهوا الغد بأعين فرّغها الجهل. هو خط دفاعي آخر، تمارس اليوميات ضمنه.

لكن الدولة تتسبب بإحراج الشعب، كلما استنبط آلية دفاعية يحيا ضمنها. فقد أشهرت في قضية المخطوفين جهلاً يدّعي المعرفة، وثقة تموّه انعدام أسبابها. فكيف يستقيم تحليل، عند إشهار الجهل؟

كأن شروط العيش في لبنان تتطلّب من الإنسان أن يغمض عينيه، ويقفز يومياً في صباح جديد. فالتراكم ليس مستحباً، سيبني قصةً يضحي من الصعب كسرها بالحرب عندما تستدعي الحاجة السياسية الإقليمية الحرب. فلينمُ العيش في حيّز المؤقت، ولينمُ معه المواطن في حيّز القلق.

حيز المؤقت هذا، تؤمنه الدولة من خلال غضّ الطرف عن حقوق يمارسها المواطن بالغصب، كما تغض الطرف عن تجاوزات يمارسها المواطن بالقوة، من دون أن تخرج بقانون يشرّع الأولى ويجرّم الثانية. فالفعل الجازم الواضح غير مستحب في

20120601-0001b-12

دولة لبنان، لكي يبقى الحق منّة، والتجاوز متاحاً، بحيث تبقى الحركة حرّة.
عند هذه الحافة، يقف المواطن اليوم. وراءه، أسبوعٌ من النار والخوف والأفكار السوداء، لُفّت أيامه بالغموض، وتأجلت قضاياه إلى موعد لاحق يكون أشد إلحاحاً. أما الحاضر فهادئ، أسبوع من الهدوء، لم تعرف له أسباب ولا موجبات، وبالتالي، لا يُعرف ما إذا كان سيستمر، أم أنه يستبق عاصفةً.
حاضرٌ أسئلته مؤجلة، نحياه تحت شمس الربيع، بالمعتاد الذي يحلّ عند غياب الاستثناء.